قاسم حداد:

تجربة الإنترنت اقترحت علي آفاقاً مضاعفة من الحرية والجمال

هكذا بدأ الشاعر البحريني، قاسم حداد، يتحدث عن موقعه الخاص على شبكة الإنترنت، ذلك الموقع، الذي عدّ تحدياً لتلك المقولات، التي تشير إلى عجز المثقفين العرب حيال ما بات يسمى «الثقافة الإلكترونية».

«ثمة ولع غامض شدّني لجهاز الكمبيوتر منذ منتصف الثمانينيات، حيث فتح لي أفقاً إضافياً لم يكن متاحاً لي حتى تلك اللحظة. وحين تعرّفت إلى الإنترنت شعرت بما يشبه المسافة الضوئية تخترقني معرفياً و روحياً، خصوصاً إذا وضعنا في الاعتبار الدور الجوهري للمخيّلة في فكرة الإنترنت ومن قبلها الكمبيوتر، فكلّ شيء في هذا الحقل ينشأ من طاقة الإنسان على التخيّل والتعامل مع الأمر كما لو أنه عالم من الافتراض اللامحدود. والأطرف من هذا أن مادة هذا العالم الافتراضي الناتج عن طاقة المخيّلة، في الأساس، معطى علمي خالص يتكوّن من نسيج وعلاقات رقمية وحسابية غاية في التركيب والتعقيد، ليس من الضروري أن يدرك الشاعر كنهها كي يكتشف علاقتها العميقة بما يتصل بالشعر كطاقة تقوم هي الأخرى على نشاط المخيلة وجمالياتها.

ماذا يريد الشاعر أكثر من ذلك؟لقد اقترحت عليّ تجربة الإنترنت (عمقياً) آفاقاً مضاعفة من الحرية والجمال يفضحان جلافة الواقع ومصادراته.. فيما أعمل، أحبّ أكون حرّاً، فهذا شرط يتيح لي التمتع بالفعل الذي أمارسه. وكلما اتسعت فسحة الحرية الذاتية شعرت بالحياة تقترب من شفافيتها، ربما لأنني أعتقد أنّ كل ما يصنعه الشاعر ينبغي أن يكون شعراً أو شعرياً أو محرّضاً على ذلك.

من هنا أرى في فكرة الإنترنت ضرباً من الشعر (حرية وجمالاً)، بوصفها فكرة تتصل بمستقبل لا يمكن تفاديه، خصوصاً إذا جاز لنا الاعتراف بأن الشعر هو ذهاب إلى المستقبل أكثر منه مراوحة في الواقع وحنيناً سطحياً إلى الماضي.

حين بدأت وضع الشعر العربي في فضاء الإنترنت (بمساعدة وحماس الأصدقاء في مؤسسة النديم لتقنية المعلومات)، شعرت بأنني أضع الشعر في مكانه، أضعه في تلك المسافة الغامضة التي يتقاطع فيها النص والضوء والصوت والصورة،

وبدأت أتأمل ما يحدث مثل شخص يرقب حركة أحلامه في سديم شفاف من المخيلة.. ومثل هذا التقاطع اللامتناهي والفاتن بين الأشكال هو من صميم نزوعي لتجاوز التخوم التقليدية لأشكال التعبير، فثمّة ما يتوجب الانتباه إليه وهو يحدث، مثل امرأة آن لها أن تصوغ شكل وطبيعة جنينها منذ بداية الحلم حتى رائحة الوردة.

إنني أعمل كل هذا (حتى الآن) وحدي، في غرفة صغيرة مكتظة بالمكتبة وكائناتها، بين ما لا يحصى من مخلوقات المخيلة البشرية التي ظلت طوال الوقت معرضة لسبات مستمر لا ينتهي، فإذا بي أنظر إلى تلك الكائنات والمخلوقات تستيقظ، نشيطة وتنتقل وتتصل بأبعد إنسان في أقاصي الفضاء الكوني، لتخلق نوعاً من الحوار الحميم، بهدوء فائق الخصوصية، وبلا ضجيج وبقدر لا محدود من الحرية التي لا تطالها سلطات العالم، وبدرجة من السرعة تشبه رقة هدب العين وهي تطلق شرارة الحب في القلب، وإذا بالأصدقاء يتقاطرون مثل مطر ناعم في ليل كثيف من الأحلام.

كل تلك الطاقات الإبداعية التي يكتبها الشعراء العرب تبدأ الآن في الذهاب إلى العالم بصورة جديدة وجميلة في التجربة العربية، طريقة لم يحلم بها النص ولا الشخص العربيين. حتى أنني عندما وضعت بعض مختارات المتنبي في المرحلة التجريبية الأولى، صادفت بيتاً له يقول :

أحلماً نرى أم زماناً جديداً

أم الخلق في شخص حيّ أعيدا» .

البحث عن الذات

ولد قاسم حداد في البحرين، العام 1948، وتلقى تعلميه في مدارس مدينة المحرق، ترك الدراسة في الصف الثاني الثانوي، ليلتحق بالعمل في المكتبة العامة، في الفترة بين 1968 إلى 1975، ثم عمل في إدارة الثقافة والفنون في وزارة الإعلام في العام 1980.

شارك في تأسيس «أسرة الكتاب والأدباء في البحرين» العام 1969، وشغل منذ ذلك الوقت العديد من المراكز القيادية في إدارتها، كما شغل رئاسة تحرير مجلة «كلمات» .. لحدّاد الكثير من المؤلفات الشعرية والنقدية، علاوة على المقالات والدراسات الأدبية، وكتب عنه الكثير في الدوريات العربية والأجنبية، كما ترجمت العديد من أعماله إلى لغات عالمية عدة.

حصل على التفرغ الأدبي من وزارة الإعلام البحرينية العام 1997.

وعن نفسه يقول قاسم حداد: أضع المرآة على الطاولة. أحملق، وأتساءل : من يكون هذا الشخص ؟ أكاد لا أعرفه. أستعين بالمزيد من المرايا. وإذا بالشخص ذاته يتعدد أمامي ويتكاثر مثل الصدى، فأتخيّل أنني قادر على وصفه : إنه قاسم حداد .. تقريباً منذ بدأت علاقته بالكتابة وأنا في جحيم لا هوادة فيه. أعرف أنّ عالم الأدب يستدعي قدراً من الاطمئنان والسكينة، أو على الأقل الثقة بالنفس. لكن هذا شخص لا يهدأ في مكان ولا يستوعبه شكل الحياة، مثل مجنون أعمى يبحث في غرفة مظلمة عن شمس ليست موجودة. لا يطمئن لجهة ولا يستقر في إقليم، وليست له ثقة في ما يكتب. يسمي ما ينجزه من كتابة : التمرين الأخير على موت في حياة لا تحتمل. فهو في كل يوم وأمام أية تجربة جديدة يبدو كأنه يكتب للمرة الأولى والأخيرة في آن. جسد يرتعش مثل طفل مذعور مقبل على الوحش، كثيراً ما تركته وحده في الغرفة مريضاً يوشك على الموت، وعندما أعود إليه في اليوم التالي، يضع أمامي النص ويجلس مثل شحاذ ينتظر ردة فعلي. ينتحب كأنه الميت يرثي نفسه. وما أنّ أقول له الكلمة، حتى

يستعيد صحته ويقفز مثل العفريت، مستعداً للحياة كأنه يولد تواً.

بالرغم من مظهره الذي يوحي بالرزانة، فإنه عابث من الدرجة الأولى. يرى في أشياء العالم طاقة محبوسة يتوجب إطلاقها من أسرها، لا يترك شيئاً على هيئته، ففي النص يتوجب أن تكون النقائض على آخرها. يشتغل على الكتابة كمن يبني جسده وروحه بالكلمات. يضع أمامه خرائط الطريق على الطاولة، وعندما يبدأ الكتابة ينسى ذلك كله ويصوغ شيئاً لا يتصل بالخرائط ولا بالطريق، يذهب إلى النص مثل ضائع مفقود في أرض مجهولة. وفي المساء يضع رأسه على كتفي ويشرع في البكاء لأنّ الكلمة لم تزل عصية عليه. يكتب كأنه يولد كأنه يموت، مولع باليأس كأن الأمل خطر عليه. أقول له: إن الكتابة هي ضرب من دفق الأمل في العالم، فيبالغ في تشبثه باليأس كمن يتحصن ضد أوهام لا يراها أحد معه. لا تعرف ما إذا كان يفجر بالكتابة أم تصلى به.

تعبت معه وتعبت منه. كلما تقدم في العمر تفاقمت فيه شهوة النقائض، وراح يتصرف مثل الفتى الأرعن. لم يعد جسده قادرا على عبء الروح التي تتفلت مثل نار تفيض على الموقد. كثير الادعاء بالمغامرات في حين أنني لم أصادف جباناً مثله. يزعم التوغل في ليل المعنى وهو لا يخاف شيئاً مثل رعبه من الأماكن المظلمة. يدعي أنه منذور لموج التجربة وهو الذي لم يحسن العوم أبداً. مسكون بفقد غامض للأشياء التي يحب.

ماذا أفعل له. هذا شخص مشحون بالتناقضات. اشتهر بالتطرف في كل أشكال حياته، فيما هو عرضة للتلف أمام هبة الريح العابرة. يتظاهر بالصلابة وهو الكائن الهش لفرط حساسيته اليومية. لماذا يتوجب عليّ دوماً أن أكون قريناً لشخص على هذه الدرجة من الغموض. قلبه طفل يراهق، ويتكلم مثل حكيم. يموت قليلاً، أحسبه مريضا فأحمله إلى نطاسي الجسد والروح، فيهز الجميع رؤوسهم أن لا فائدة، حالته مستعصية ويتوجب منحه رصاصة الرحمة مثل أي حصان مكسور القوائم. وفي الطريق إلى البيت يشب وينفلت مني هارباً إلى السهوب ولا أكاد أسمع عنه شيئاً. وفي اليوم التالي ينهرني لكي أقرأ كتابه الجديد. وحين أقول له عن الغموض، يبتسم بحذر ويقول : لو فهموا المعنى لأهدروا دمي.

موهبته في التحول تجعلني في حيرة. ليست له صورة واحدة، ولا تشف المرآة عن شخص أعرفه في كل مرة. كلما ضاعفت له المرايا تكشف عن شخص آخر. فلا أنا أثق في رؤاي، ولا هو يسعف توسلي أن يكف عن ذلك. ليست سهلة الحياة مع شخص لا يحسن شيئا مثل تضليل الآخرين عن السبل التي يذهب إليها. يشك في كل شيء ولا يرى في الكتابة سوى قناديل سود في يد كائن أعمى يقود سربا من الموغلين في النوم نحو أحلام تضاهي الكوابيس.

أنصح به علاجاً لرأس صحيحة، لتحصل على صداع مضمون. عليك أن تتفادى شراكه المنصوبة في منعطفات دروبه، فلن تخلو من أسباب الغيظ من الذات بعد عبور أحد نصوصه عليك، في نوم ويقظة. يعبر راحة الآخرين فيمنحهم ما يفيض عن حاجتهم من القلق المقيم. يقول لك بلسان طلق ذلق غير منزلق: إن الجنة في المتناول، وما عليك إلا أن تصدق دعابات الجثة الرشيقة وهي تعبر نحو سريرك فهي جثتك. ولكن كلما طفق في حديثه عن الصدق وضعت يدي على قلبي، فأكاذيبه لا تحصى، ولن تجد شخصاً يروي الأكاذيب بصدق فاتن مثلما يفعل. وهذا ما يضعني في مجابهة غضب الآخرين وهم يعلنون استنكارهم لشاعر عابث على هذه

الشاكلة. ماذا أفعل له، ماذا بوسعي حقاً أن أفعل لشخص لا يأخذني ولا يتركني وحدي.

كلما حاولت استمالته للمجالسة والتفاهم قليلاً أعلن : لست منسجماً ولست مهيأ للانسجام. أليف ونافر في آن. كأنه لا يكتب النص للاتصال بالآخرين ولكن لينقطع عنهم ويبتعد، ويبالغ في ذلك ويباهي به.

مخبره أكثر ضراوة من مظهره. مغامر في الكتابة ومحافظ في الحياة، نصه أكثر تقدمية منه. أقول له عن هذه المفارقة، فيهز كتفيه قائلاً: لا يهم، أنا لست أنت، أنا غيرك. لديه أصدقاء كثيرون، وأعداؤه لا يحصون. يردد : مادمنا لا نستطيع كسب أصدقاء جدد، يتوجب علينا الاحتفاظ بأعدائنا السابقين. موهبته في ابتكار الأصدقاء لا تضاهى، لكنه لا يفرط في العدو بسهولة.

يقول: إن تحويل الصديق إلى عدو أسهل من كسب العدو صديقاً. عنده، العدو أكثر صدقاً في علاقته من الصديق، ربما لأنه أكثر وضوحاً وصراحة. العدو لا يندم على كونه كذلك، الصديق يندم لكونه صديقاً لك أحياناً.

يهرب من كل مكان ليذهب إلى البيت. ثمة شعور بالخطر يهدده دوماً خارج البيت. وهذا ما يجعله يحب السفر كفكرة، لكنه لا يحتمله في الواقع. ما أن يدركه المساء بعيدا عن البيت حتى تنتابه حالة الذعر الغامض، فيتصرف مثل وحش جريح ومحاصر. بعد سفره بساعات قليلة يخالجه الندم على ارتكاب تلك الحماقة. لا أعرف حقاً من أين تأتيه القدرة على كتابة الشعر وهو في مثل هذه الحالة من انعدام الأمن. طرحت عليه مرة هذا السؤال، فنظر إليّ بغضب وقال : المطمئن لا يكتب شعراً ، إنه لا يخاف من شيء ولا تصيبه الرجفة الداخلية العصية على التفسير، إنني أكتب الشعر لأنني خائف وفي خطر دائم. الشعر، فقط، يحميني من العالم. أنت لا تعرف ذلك، لأنك لن تشعر بفقد شيء مفقود. فكر في الانتحار غير مرة، لكنه لم يجد الوقت لتنفيذه. هذا ما يزعمه. أعرف أنه أجبن من أن يفعل ذلك. فهو لا يجرؤ على الحياة، فكيف على الموت. ولعه بالمنتحرين والمجانين يثير الريبة. لعله لا يزال يحسن التماهي في الكائنات الأخرى. وكثيراً ما كنت أخشى من أن أصحو ذات صباح فلا أجده موجوداً في الحياة. وهو يتلذذ بهذا الخوف الذي يسيطر عليّ، كأنه يعبث بشخص آخر. تخيلوا شخصاً ينهض من النوم ليجد نفسه موجوداً في هيئة شخص منتحر. إنني لا أحتمل هذه الفكرة. لكنني لا أجد فكاكاً من هذا القرين الذي يعبث بي، ويزعم أنني هو، هذا هو قاسم حداد .. تقريباً. توهمت أنني رأيته في هذه المرايا، فيما كان متماهياً في الزئبق.

ها أنا أثق بأنني لا أعرفه أبداً. من يزعم أنه يعرف نفسه».

العولمة

وفي رده على سؤال لعبده وازن عما إذا كان في إمكان الشاعر اليوم أن يكون شاعراً فقط، في زمن المادة والاستهلاك والعولمة، يقول حداد: الشاعر في كل مرحلة هو كائن في لحظته التاريخية، بمعنى أنه إنسان يتصل بكل المعطيات المعرفية والسياسية والاجتماعية. يمكن أن تتفاوت درجة اتصال هذا الشاعر أو ذاك بهذه المعطيات، لكنه، حتى بغير وعي كامل منه، سيكون نتاجاً لهذه المعطيات ومتأثراً بها. الشاعر لا يتخلى عن شعريته فيما يتقاطع مع أشياء الحياة. إنه يمنح شعريته هذه الأشياء، ويرتفع بها إلى مرتبة أكثر سمواً وأعمق رؤية، ويحافظ أثناء ذلك كله بالمعنى النقدي الجميل الذي يمثله الشاعر في الحياة الإنسانية، حيث الجنة

هي في المكان الآخر الذي يتوجب أن تذهب إليه الإنسانية. والظواهر المستجدة مثل المجتمع الاستهلاكي أو مسألة العولمة لا ينبغي أن تخيف الشاعر أو ترهبه، على العكس الشاعر لا يخاف من أية سلطة، فلديه شروطه التي لا يتخلى عنها.

و بالنسبة إليّ، الشعر هو المبرر الأخير في حياتي، ربما لأن الشعر هو ما يجعل الحياة جديرة بالعيش ومحتملة.

تفصيلات

هناك زوايا عدة في موقع قاسم حداد الإلكتروني، هي: سيرة ذاتية، ويتحدث فيها حداد عن نفسه .. الزاوية الثانية تحمل اسم «أعمال»، وفيها معلومات عن إصدارات حداد الشعرية والنثرية، مع تزويد القارئ بالعديد من النصوص، في كل عمل على حدة .. أول أعمال حداد كان ديوان «البشارة» الصادر العام 1970، تلاه «قلب الحب» في العام ذاته، وفي العام 1972 كان ديوان «خروج رأس الحسين من المدن الخائبة»، وفي العام 1975، كان ديوان «الدم الثاني»، أما «شظايا» فصدر العام 1981، وتلاه «انتماءات»، ثم «الجواشن» وهو نص مشترك مع أمين صالح العام 1989، سبقه بعام ديوان «النهروان».

في عقد التسعينيات من القرن الماضي، صدر لحداد العديد من دواوين الشعر، كان أولها «يمشي محفوراً بالوعول» العام 1990، ثم «عزلة الكلمات» العام 1992، وهناك «أخبار مجنون ليلى» بالاشتراك مع الفنان التشكيلي العراقي ضياء العزاوي، و«قبر قاسم» العام 1997.

الزاوية الثالثة تحمل اسم «عن الشاعر والتجربة»، وتحوي العديد من المقالات والدراسات التي كتبها نقاد عرب في تجربة قاسم حداد، أما الزاوية الرابعة فتضم العديد من اللقاءات الصحافية مع حداد.

الزاوية الخامسة وتحمل اسم «سيرة النص»، وما أن تلج داخلها حتى تتملكك الدهشة .. ثمّة صورة ذئب تتوسّط الشاشة، وفي الركن الأيسر العلوي هناك عبارة تقول: اذهب إلى النص، ثمة ذئاب كثيرة في انتظارك.. وبالفعل هناك سيرة كاملة تتحدث عن النص الشعري، تحمل اسم «سيرة ذئاب»، وتنقسم إلى 34 ذئباً !

يلي هذه الزاوية، زاوية تحمل اسم «وقت الكتابة»، يتحدث فيها الشاعر في أمور أدبية وغير أدبية، كما يتناول بطريقته الخاصة تجارب شعراء آخرين، منهم أدونيس، ونزار قباني، وغيرهما.

بعد «وقت الكتابة»، هناك «دفتر الزوار»، ثم «وجوه»، وهي زاوية تتحدث عن الألبوم الغنائي، الذي صدر العام 1997، من شعر قاسم حداد وإلقاء أدونيس، وغناء خالد الشيخ وآخرين.

وفي الزاوية الأخيرة التي تحمل اسم «ما لم ينشر في كتاب»، هناك زاوية فرعية تحمل اسم «نص على نص»، وهي تتكئ على أشعار خاصة وضعها حداد للحديث عن تجارب شعرية أخرى، منها أمل دنقل وسيف الرحبي.

وفيما يلي سنورد بعض ما تضمنته هذه الزوايا، كلاً على حدة.

وقت للكتابة

يتحدث الشاعر قاسم حداد هنا عن عوالم مختلفة حفرت شيئاً

ما داخله. من هذه العوالم «عالم أدونيس»، الذي يقول عنه: .. بالنسبة إلي، كان ذلك الدرس، الذي بدأ باكراً، جوهرياً وجذرياً على غير صعيد، فمنذ أدونيس أدركت أنّ الشعر هو شيء آخر غير الذي عرفناه من قبل، وطوال هذه السنوات لم أتوقف عن التعلم من كل ما أقرأه لأدونيس شعراً أو نثراً وصمتاً أيضاً. فثمّة علاقة خاصة بلغته وطريقته في التعامل مع الكتابة وأشياء العالم، تمكنت من نسجها (في المسافة الافتراضية بين النص والشخص)، حيث أستطيع الزعم أنني صرت أدرك في صوره الشعرية وعلاقاته اللغوية ما قد يفوت على الكثيرين.

وربما هذا ما جعل الفائدة من درس أدونيس في تجربتي تتجاوز التقاطع المباشر الذي يجري الكلام عنه في معرض الإشارة عن تأثري بأدونيس، وهي الإشارة التي لا ينبغي أن تشكل أي حرج أو حساسية لدى الشاعر عندما يتحدث الآخرون عن معلميه الذين أخذ عنهم ما استطاع أخيراً أن يتجاوزه لينجز كتابته بخصوصية ذاتية واضحة.

وعند هذه المسألة أحبّ التنبيه إلى أنه من بين ما يقلقني في الجيل الجديد من الشعراء والأدباء العرب، نزوعهم غير المفهوم لنفي تأثرهم أو إنكار أي تأثيرات لمن سبقهم على ما يكتبون، وهي ظاهرة لا أصادف مثيلها في تجارب الأدباء في كل العالم، على العكس، فالجميع هناك يعترفون بأساتذتهم، ويحفظون لهم الاحترام حدّ التمجيد، اتفقوا معهم أو اختلفوا، وتدفعني هذه الملاحظة إلى ما يشبه خشية الظن بأننا سنكون آخر الأجيال الأدبية التي تعترف بأساتذتها.

ولن يحتاج هذا القول لمناسبة أجمل وأبلغ دلالة من مناسبة الكلام عن تجربة أدونيس، وهو أحد أكثر المبدعين العرب الذين طبعوا أكثر من جيل من الأدباء والكتاب والشعراء والنقاد العرب في النصف الأخير من القرن العشرين، فقد اقترح أدونيس على الكتابة العربية الحديثة أسلوباً جديداً يتميّز بالجمال والحرية في لحظة واحدة، وهو الأسلوب الذي ستصدر عنه أهم التجارب الشعرية العربية الجديدة، وتذهب إلى تأكيده وبلورته والإضافة إليه.

وعن عالم نزار قباني يقول: لن أزيده مجداً إذا قلت إنه علمّني الدرس الأول في الشعر، لكنها حقيقة تعنيني بدرجة أشعر بحيويتها في تجربتي، وأدرك وحدي خطورتها في تكويني الشعري. وربما نلت مجداً مضاعفاً إذا صرحت بها في هذا السياق الحزين، فأنا جزء صغير من جيل شاسع أخذ من نزار قباني الدرس الشعري مبكراً.

وربما كان نزار قباني قد أتاح للغة التعبير الشعري درساً في الحب لم يعرفه من قبل. وعندما كنت أنسخ كتبه وأحفظها عن ظهر قلب (مثل الملايين غيري) لم أكن أشعر بأنه درسي الأول، ربما لأنّ المعنى الفني يأتي لاحقاً، ويعنيني هنا المعنى الإنساني الغامض (لحظتها)، والمتصل بشهوة الحرية المكبوتة التي كانت ستينيات هذا القرن تدخرها لجيلنا، وهو يجد في البحث عن آفاق ينطلق بها بعناصر مختلفة تسعفه للتعبير عن ذاته. نزار قباني كان مكوناً جوهراً لذواتنا الإنسانية والفنية بعد تفتح وعي الذات لذاتها. فالذين وجدوا في نزار شخصاً يمس شغافهم العاطفية، تيسر لهم لاحقاً أن يرقبوه بِوَلَه وهو يمسّ الشغاف الأخرى بطريقته غير القابلة للتقليد دون فضيحة.

أقول دون فضيحة، لكي أشير إلى الفضيحة الرائعة التي قادني إليها تقليدي المبكر لكتابته، ففي تجاربي الأولى كنت مقلداً لبعض نصوصه بصورة جعلتني أعلن أنني كنت قادراً على تقليد شاعر كبير مثل نزار قباني، ولم يكن ذلك دون فضيحة.

وتحت عنوان «مارسيل خليفة .. أنت يوسف وأخوتك لا

يحصون»، يقول حداد: ليس سهلاً الكلام عن مارسيل خليفة بمعزل عن حالنا العام ووضعنا الشامل. فالتهديد الذي يتعرض إليه هذا الكائن الصغير يمس شغاف كياننا بأكمله، حيث شبكة الظلام القديم الرهيبة، منسوجة بأكثر الأظلاف ضراوة، تسعى لأعضاء التفكير و العمل الإبداعي في جسدنا المسالم، وهي لن تكتفي بواحد منا على الإطلاق،وإلا لكانت اكتفت بالعديد من الأسماء الكثيرة التي طالتها في السنوات الأخيرة في بعض (لئلا نقول كل) البلاد العربية. ومن الخطورة النظر إلى الملابسات (التي يرغب البعض في حصرها بقضية مارسيل خليفة) مفصولة عما يجري في بعض البلاد العربية هذه الأيام، فالشبكة واحدة ، متماسكة (سجّان يمسك سجّان) حسب تعبير مظفر النواب (الاحتياط الدائم لمجابهة التعسف).

ليست الأغنية هي الهدف، إنما هي وسيلة للوصول إلى العنق الرقيقة التي دأب مارسيل على رفعها شاهقاً بارتفاع صوت الغناء. وليس النص هو الغاية إنما هو حجة الصمت على صوت الشخص للوصول إلى الشاعر، وكأنهم يصوغون لنا المستقبل الظلامي على هواهم.

الجيل الجديد

في سيرة النص الأدبي، التي تحمل اسم «سيرة الذئاب عند حداد»، يقول في أحد أجزاء هذه السيرة، موجهاً حديثه إلى «الجيل الجديد»: ليس أمام الجيل الشعري الجديد، المتأججة أحداقه نحو الأفق، إلا أن يعيد النظر في الأسئلة التي اقترحتها عليه التجربة الأدبية حتى سبعينيات القرن الماضي، عليه أن يطرح أسئلته على تلك الأسئلة، هذا هو قدر الجيل الراهن / القادم، فقد انطوت تلك الأسئلة على اضطراب شديد، فرضته الطبيعة السياسية والاجتماعية العربية التي نشأت فيها أطروحات الحركة الأدبية السابقة.

فها هو الجيل يتلقى حظه الأكثر اضطرابا بما لا يقاس والتوقف أمام الأسئلة السابقة، لا ينبغي أن يفهم منه تقليلاً من شأن أصحاب تلك الأسئلة، بالعكس، ففي مثل هذا العمل نوع من الاحتفاء الإبداعي بتجربة ليس لأحد أن يستهين بمعطياتها نظراً وعملاً.

إن إعادة النظر هو فعل حوار، يتجاوز الخضوع والقبول من جهة، ويتصل بخصوصية الزمان ولحظة التاريخ من جهة أخرى، وعلى إعادة النظر هذه أن تتحقق بشروطها، لئلا يصل الجيل الجديد إلى ذاته الأفق الذي تبشر به نهايات تجارب منتصف القرن العشرين حتى الآن وهي نهايات لن يكون نكوص نازك الملائكة، واصطدام يوسف الخال بجدار اللغة، وعموديات أكثر من شاعر، والهيام بسلطة المؤسسات (لكي لا نذكر إلا الشعراء) صورة مختزلة ومباشرة منها.

ولكي لا يفهم كلامنا بالسائد المتداول من القول، فإنني لا أرى في هذا الواقع أزمة ما على العكس، فكل ما يجري هو مظهر من مظاهر التحول الطبيعي، التحول الذي يشي بصحة في الجسد، فالجسد الذي لا يموت لا يعرف الحياة، لا أميل إلى اصطلاح الأزمة.

أحب أن أسمي ذلك موسم الولادة، وإذا تمكن هذا الجيل الشعري الجديد من طرح أسئلته الخاصة في مواجهة الأسئلة السابقة، فسيتيسر له أن يثبت جدارته بعبء الكتابة، فأهمية كل جيل ودليل جديته يكمنان في قدرته على ابتكار أسئلته، وليس في اجترار أسئلة سواه ممن سبقه.

إن في تجربة الجيل السابق قضايا كثيرة تظل بحاجة إلى المساءلة والحوار والمراجعة، والنقض أيضا، فكلما كان التراث القديم جميلاً صار أكثر جدارة بأسئلتنا الجديدة،

ولابدّ من أن التراث الحديث سيبدو أكثر جمالاً عندما نمعن في وضعه تحت أسئلة لا هوادة فيها، أسئلة تشكّ في أنّ كل شيء على ما يرام، عندما يتعلق الأمر بالكتابة.

ولعل الفجوة المهمة التي على الأجيال الجديدة تحقيقها دوماً، هي تجاوز الاعتقاد بأن السابقين قد أعطوا أجوبة كافية وجديرة بالتقديس، وما علينا إلا قبولها كمسلمات،

فالجيل الذي يفعل ذلك، هو جيل بلا ألسنة، ولا صوت له، ولا يتمتع بموهبة الإصغاء، عليه أن يتفادى المآزق التي ذهب إليها السابقون، وهي مآزق توهم الكثيرون أنها منجزات حصينة، وأجوبة مكتملة.

ليس في كل ما يكتبه الإنسان ما يسوّغ قداسة ما، وليس هناك من هو محصن ضد النقد والنقض بهذه الروح، على الجيل الراهن / القادم، أن يبادر في تشغيل موهبته وإبداعه،

لكن من المؤكد أن هذه الموهبة ليس لها أن تحسن الشغل إلا إذا تسلحت بالمعرفة.

هل نكون متصلين بنبوءة جبران خليل جبران، عندما قال ذات مساء مفعم بالألق في بداية القرن: «أقول لكم، أنه لا ينقضي هذا الجيل، إلا ويقوم لكم من أبنائكم وأحفادكم جلادّون» ..

هل يكون جيلاً جميلاً من الجلادّين، هذا الذي يشحذ نصال موهبته على شفرة المعرفة،

ينبغي أن نعاقب أجوبة الموت بأسئلة الحياة.

يوسف الشايب